المحاضرة 04 علوم البلاغة العربية(علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع)

البلاغة بعدها فنا او علما لدراسة الجمال الأدبي تستند إلى علومها الثلاثة (علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع) وكلها تبحث في التراكيب العربية وكيفية بنائها وإفادتها المعنى إلى المتلقي/المستمع مع مراعاة المقام ، موظفة صورا وتراكيب ومحسنات تسم في وضوح المعنى وتقويته وتكسبه جمالا فنيا يجعله كلاما بليغا من كل الجوانب.

01 /علم المعاني: يعرّفه الخطيب القزويني في كتاب الإيضاح في علوم البلاغة "علم يُعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال"

والمراد بأحوال اللفظ : ما يشمل أحوال الجملة من الفصل والوصل والإيجاز والإطناب والمساواة ، وما يشمل أحوال كل من طرفيها: كالذكر والحذف ، والتقديم والتأخير وغيرهما ، وما يشمل أحوال الإسناد كالتأكيد، والقصر، وغيرهما.

فعلم المعاني هو الأساس الأوّل في علوم البلاغة لأنه يراد به بناء الجملة على نحو يحقق المعنى ويفيه حقّه طبقا لما يقتضيه الحال، فيسلك المتكلم في سبيل ذلك طرقا في القول مختلفة، قد تخرج عما تقتضيه دلالة الألفاظ التي وُضعت لها.

فالألفاظ في تركيبها وفي أصل وضعها قد لا تفي المعاني حقها بما يريد المتكلم منها من تعابير تحمله مقاصده، فيلجأ المتكلم إلى التحوير والترتيب في العبارة بالتقديم والتأخير، والحذف والذكر ، والتعريف والتنكير، ... وغيرها من القضايا التي تجعل العبارة تتسع لتفيد معاني ودلالات ليست لها لكنها تحقق المطلوب، نحو قوله تعالى في دعاء زكرياء عليه السلام : "ربِّ إني وهن العَظمُ مِني ، واشتَعَل الرَّأسُ شَيبَا، ولم أَكُن بدُعَائِك رب شقيًّا" ، نجد ما حدث في الآية من تأخير المضاف(شيبُ: فاعل مرفوع وهو مضاف) ، عن المضاف إليه، وتبادل الموضعية بينهما، قد جعل الآية الكريمة تكشف عن الضعف الشديد الذي يعاني منه زكرياء عليه السلام

وكيف أنّ الشيب قد انتشر في رأسه، وعمّ جملتَه، وهذا ما لا يتحقق لو جاءت الآية على نحو (اشتعل شيبُ الرّأس). ينظر: توفيق الفيل: بلاغة التراكيب، ص7).

فعلم المعاني هو الذي يبحث في أحوال التراكيب وما يكون فيها من اختلاف، أو ما تأتي عليه من صور لتؤدي معنى ما يناسب حالة بعينها. و يمكن أن نطلق عليه علم التراكيب؛ فيختص بتركيب الكلمات داخل الجملة لأداء معان بلاغية جديدة.

يقول السكاكي (ت626هـ) في كتابه مفتاح العلوم وهو الكتاب الذي استقرت فيه البلاغة علما قائما على علمي المعاني والبيان وتحددت مصطلحاتها فيه عرّف السكاكي علم المعاني قال:«اعلم أنّ علم **المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان أو غيره ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطإ في مطابقة الكلام لما يقتضي الحال ذكره.**""

فالسكاكي هو واضع التعريفات النهائية والحقيقية لعلوم البلاغة

شرح التعريف:نعتمد في الشرح أربع نقاط أساسية تمثل تراكيب مفتاحية له"

1-تراكيب الكلام:يقصد بها التراكيب الفصيحة البليغة وما تتمتع به من وضوح في الدلالة والبيان .

2-خواص التراكيب: أي الخاصة التي يتسم بها التركيب من وضوح في الدلالة ومن بيان في المعنى وما يتمتع به من خصائص دلالية يمكن أن ينتفع بها في مطابقة الكلام مع أحوال السامعين

3-في الإفادة حديث عن تركيب الجملة وكيف يمكنها حمل المعنى إلى السامع ، والتراكيب اللغوية لا تتساوى في الحسن والقبح بل هناك تراكيب غاية في الفصاحة وتراكيب أقل منها فصاحة ووظيفة علم المعاني البحث في هذه التراكيب والمستويات الجمالية التي يتصف بها هذا التركيب عن غيره

سؤال: لماذا يدرس علم المعاني التراكيب وخصائصها ومواطن الجمال والقبح؟

ج: يدرس ذلك لغاية أن يُعرَف كيف يوفق المتكلم بين كلامه وأحوال السامعين وهذا هو تعريف البلاغة العربية :"البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال".

فكان علم المعاني أهم العلوم التي تهتم بها البلاغة العربية إذ له علاقة بمطابقة كلام المتكلم مع أحوال السامعين ويستند إلى أصول نحوية في تحديداته وينفتح بها على سياق الحال ومقاماته.

وأحوال السامعين متعددة: سعيد وحزين، جاهل وعالم، مرأة ورجل، سياق مدح وسياق ذم، مقام شكر ومقام تعزية، وهناك العالم بالشيءوالذي لا يعلم به شيئا.

فالأحوال متعددة، والحكمة تقتضي عدم التعامل مع كل هذه الأحوال بطريقة واحدة وإنما لابد أن ننوّع في كلامنا بما يتناسب مع كل طريقة على حدة، أي الذكي يكفيه من الكلام الإيجاز أما غير ذلك فيحتاز لمزيد تفصيل وبيان وتوضيح، وكذاك العالم بالشيء يحتاج إلى تأكيد بالقول ليقتنع عكس الجاهل بالشيء، وكلها قضايا يهتم بها علم المعاني.

ومن أهم قضاياه: الأساليب خبر وإنشاء، والحذف والذكر، والتقديم والتأخير، والايجاز والإطناب والمساواة،والتعريف والتنكير .

ولكل قضية وظيفتها وأهميتها في الكلام،ولا بد من معرفتها لمعرفة كيفية توظيفها وما تحمله من معان في سياق النص.

4-ليحترز بالوقف على ذلك عن الخطإ في مطابقة الكلام لما يقتضي الحال ذكره: يعني معرفة كل هذه القضايا وطرائق استعمالها لنعرف كيف نطابق بين كلامنا وأحوال الساميعن.

من واضع علم المعاني في البلاغة: عبد القاهر الجرجاني يُعدّ مؤسسا لعلم المعاني من خلال تناوله لقضاياه في كتاب "دلائل الإعجاز" ، ولووضعنا مقارنة بين كتاب الدلائل والمفتاح .

فإننا واجدون كتاب "دلائل الإعجاز" نستمتع بما فيه وكأنه كتاب حديث نفهمه في حين نشعر بصعوبة كبيرة في فهم مصطلحات وتراكيب المفتاح.

ونجد في الدلائل روح الأديب الواضح والسلس في أسلوبه في حين مفتاح العلوم لغته أقرب إلى لغة المناطقة لغته جافة ومصطلحاته غامضة نوعا ما لكنه مرتب ترتيبا منطقيا.

الجرجاني يكثر من طرح الجمل والشواهد وعملية التمثيل حتى يستقر المعنى في ذهنك . وتفهم مقصد الكلام وهذا غير متوفر في كتاب مفتاح العلوم.

ومع ذلك لا يمكن الاستغناء عن "مفتاح العلوم" المفتاح فالسكاكي قدم لنا البلاغة في صورة علم مستقل له مصطلحاته وأقسامه .

الفضل للجرجاني في التأسيس للقضايا التي تناولها البلاغيون في علم المعاني، **فالأصل في علم المعاني نظرية النظم وقضاياها التي وضعها عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز**.وما علم المعاني عند السّكاكي إلاّ ما اصطلح عليه الجرجاني بالنّظم، مع إضافات وتقليص للشواهد وتنظيم وتبويب يحسب للسكاكي،يقول"أحمد مطلوب":« وحينما قسّم السّكاكي البلاغة إلى علومها المعروفة أطلق مصطلح"علم المعاني" على الموضوعات التي سمّاها عبد القاهر نظما»

الغاية من وراء إيجاد علم المعاني :

البلاغة والفقه وأصول الفقه والتشريع والأحكام والنحو واللغة نشأت كلها لخدمة القرآن الكريم وفهم أسرار لغته والوقوف على مواطن إعجاز القرآن والسر من وراء ذلك.

ومهمة علم المعاني البحث في أسرار إعجاز القرآن الكريم، بالبحث في تراكيب القرآن الكريم وجمله، وبحث المعاني الثواني التي تتضمنها.وسياقات استعمالها ومقاصدها المختلفة.

ثم طالما أنّ القرآن عربي ولغته عربية فهذا لايمنع من دراسة الشعر والنثر وماكتبه العرب لنستزيد معرفة ودراية بأساليب العربية وفنونها التي تعد معرفتها تقريبا لنا من لغة القرآن الكريم.

02 /علم البيان: يرتبط بالأمور المعنوية أكثر من علم المعاني المهتم بالأمور اللفظية، أما البديع فهتم بالأمرين معا،

وعلم البيان علم مختص بدلالات الألفاظ من حيث حقيقتها ومجازيتها ومن حيث الوضوح والخفاء، والتنوّع في هذه الدلالات له علاقة بتنوع المقامات والمعاني في نفس المتكلم ولذلك عرف

السّكاكي بأنّه " **معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة، في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ليُحترز بالوقوف على ذلك عن الخطإ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه**"

معنى ذلك أن مجال علم البيان هو الصور الأدبية التي يبدعها المتكلم، "فيستطيع من خلالها التعبير عن المعنى الواحد بطرائق مختلفة ، بعضها أكثر جمالا من بعض، ويكون تأثيرها في النفوس على قدر ما فيها من إبداع،في رسم تلك الصور، وجعلها قريبة إلى العقل والوجدان" .

وتكمن **وظيفة علم البيان** في رسم المعنى في أبهى صورة أدبية ممكنة، ولذلك تنافس الشعراء قديما وحديثا في إبداع وخلق صور فنية جديدة ، ولعلّ هذا ما جعل النقاد يعرفون الشعر بأنه " ضرب من النسج وجنس من التصوير"

ولذلك قسم البلاغيون علم البيان إلى ثلاثة أبواب رئيسة: التشبيه **والمجاز**(مجاز مرسل وعقلي واستعارة) **والكناية**.

03 /علم البديع: يُعدّ علم البديع علما تكميليا أي بعد مراعاة قضايا علم المعاني وعلم البيان يلجؤون لعلم البديع لإضافة الجانب التحسيني في الكلام فلكل نوع لفظي أو معنى وظيفته وقيمته الجمالية.

يقول الخطيب القزويني عنه: هو علم تعرف به وجوه تحسين الكلام، وهي وجوه تزيد القول حُسنا وطلاوة وتقبلا، وذلك بعد رعاية مطابقة الكلام لما يقتضيه الحال، ووضح الدلالة على المراد لفظا ومعنى"

بمعنى انه تابع لعلمي المعاني والبديع وياتي في رتبة متأخرة عنهما، ليقوم بوظيفة التحسين والتزيين للألفاظ والمعاني.

والبديع بصفته تحسينا لوجوه الكلام بنقسم إلى نوعين:

محسنات لفظية: مهمتها تحسين الألفاظ وتزيينها. ومنها: الجناس، والسجع، والتصريع والموازنة، والمماثلة ، ورد العجز على الصدر، والترصيع.

ومحسنات معنوية مهمتها: تحسين المعاني وتجميلها. ومنها: الطباق، والمقابلة، والتورية، والتضمين، وحسن التعليل، والتلميح، ومراعاة النظير.

فكل هذه العلوم بما تضمّه من قضايا في المعاني والبيان والبديع تشكل آليات بلاغية يستعين بها المتكلم في توصيل المعاني إلى القلوب، والتأثير في نفوس المخاطبين، وذلك باختيار الأساليب البلاغية المناسبة، والألفاظ الفصيحة، ويحاول تزيينها في ثوب حسن مُحكم التأليف ، حسن النظم.